المجلس العلمي لجهة مراكش تانسيفت الحوز

صفات كمال الإيمان

وأثرها في صلاح الفرد والجماعة

د. محمد عز الدين المعيار الإدريسي

سلسلة التوعية الإسلامية

1

الطبعة الأولى

1423هـ / 2002م

المملكة المغربية
المجلس العلمي الاقليمي
لولاية
مراكش

صفات كمال الايمان

وأثرها في صلاح الفرد والجماعة

الكتاب : صفات كمال الايمان

المؤلف : د. محمد عز الدين المعيار الادريسي

الطبعة : الأولى 2002

المطبعة : دار وليلي للطباعة والنشر شارع الأمير مولاي عبد الله عمارة الفتح رقم 1، مراكش.

الهاتف: 48 40-31 044

رقم الإيداع

القانوني : 2002/0882

د. محمد عز الدين المعيار الادريسي

صفات كمال الايمان

وأثرها في صلاح الفرد والجماعة

الطبعة الأولى
1423هـ/2002م

مقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ولي المؤمنين عليه نتوكل وبه نستعين والصلاة والسلام الأتمان الأكرمان على الصادق الأمين "الرؤوف الرحيم" سيدنا محمد امام المتقين السراج المنير المبعوث رحمة للعالمين، وعلى ءاله وصحابته الطاهرين الطيبين الهداة المهديين وعلى التابعين ومن سار على نهجهم القويم إلى يوم الدين.

وبعد: فان جوهر هذا الدين وسره، هو الايمان الذي تهب نسماته على الانسان فتمنحه السكينة والاطمئنان، وتفتح بصيرته وبصره، فإذا هو يرى ما لا يرى غيره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله".

ولا يخفى ما لهذه الثمرة من نتائج عظيمة وأثر بعيد في بناء الحضارة ونهضة الأمة، لأنها تعطي الانسان صانع الحضارة الثقة في جهاده النبيل حين يعمل مرتبطا بالله مستمدا منه كل عون وتوفيق.

في هذا الاطار يأتي هذا الدرس ليتوسع في تفسير الآيات: الثانية والثالثة والرابعة من سورة الأنفال، لما تضمنته من سمات فضلاء المؤمنين، وصفات كمال الايمان، معتمدا في ذلك على مختلف التفاسير من شتى المذاهب والمشارب وما فتح الله به من توفيق وسداد في ابراز ما تحتويه من معان وأسرار.

ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

«انما المومنون الذين إذا ذكـر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقـون أولئك هم المومنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم».

الأنفال : 2-4

بين يدي الآيات

تنتمي هذه الآيات الثلاث إلى سورة الأنفال، ثاني سورة نزلت من القرآن الكريم بالمدينة النبوية بعد "البقرة" على أرجح الأقوال، وتأتي قبلها في ترتيب المصحف سورة الأعراف.

وجوه المناسبة بين الأنفال والأعراف

تعددت وجوه المناسبة بين السورتين من أبرزها:

1- أن الله تعالى لما ذكر في الأعراف، قصص عدد من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، استدعى ذلك بيان حال رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه فذكره في الأنفال.

2- انه سبحانه لما ذكر في الأعراف أن اتباع الهوى أصل في الضلال والتنكب عن سبيل الرشاد «ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه» (1) أمر المومنين - هنا في الأنفال- بسد باب

1- الأعراف : 176

الأهواء ونبذ الشقاق والنزاع، حفاظا على صفهم من التصدع، ووحدتهم من الانهيار، وبالتفويض لله ورسوله في تدبير أمورهم، فإن ذلك أجدى لهم وأهدى، مذكرا اياهم بما ينبغي لهم التزامه «انما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» (2).

3- انه تعالى لما قال في الأعراف « وإذا قريء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون» (3) بين في الأنفال حال المؤمنين عند هذا السماع فقال : « انما المومنون» إلى قوله «زادتهم ايمانا» لأنه هكذا يكون سماع المؤمن « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون»(4).

وهذه الوجوه وغيرها مما يؤكد أن وضع الأنفال بعد الأعراف وقبل براءة في ترتيب المصحف توقيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة، وليس مجرد اجتهاد من

2- الأنفال : 2-4
3- الأعراف : 204
4- الأنفال: 21

عثمان رضي الله عنه كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء اعتمادا على حـديث ضـعـيف(5) يدور في كل رواياته على يزيد الفارسي، وهو غير مشهور بل يكاد يكون مجهولا.

ذكره الامام البخاري في الضعفاء (6)، وروى أنه ذُكر ليحيى بن معين فلم يعرفه، ومن ثم فلا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يعتد به في ترتيب القرآن المتواتر.

سبب النزول

أما سبب نزول سورة الأنفال، فإنه لا خلاف أنها نزلت في بدر وغنائمه، وسميت بالأنفال أخذا من مطلعها حيث افتتحت بقوله تعالى «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول»(7).

5- انظر : المسند للامام أحمد : 197/1 تحقيق: أحمد محمد شاكر مكتبة التراث الاسلامي- القاهرة.

6- كتاب الضعفاء الصغير: 127/ رقم 407.

7- الأنفال : 1

والأنفال: الغنائم وأحدها نفل بالتحريك، وتعني في كلام العرب الزيادة على الواجب ومنه قول لبيد:

ان تقوى ربنا خير نفل

وباذن الله ريثي والعجل (8).

ويستفاد من مجموع الآثار الواردة في سبب النزول أن أهل بدر اختلفوا في غنائمها وفي قسمتها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأنزل الله ما يرفع - في شأنها- كل لبس وغموض، وانها لله تعالى يحكم فيها بحكمه وللرسول يقسمها وفق حكم الله.

ثم اتبع سبحانه ذلك بالأمر بالتقوى واصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله فقال عز من قائل:«فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مومنين»(9).

8- انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 361/7.
9- الأنفال : 1.

أي ان كنتم كـامـلي الايمان، لا ان لم تكونوا مـؤمنين تحريضا لهم على ان يكون ايمانهم في أحسن صوره وأبهى مظاهره، وجواب الشرط دل عليه مـا قبله من قوله تعالى «فاتقوا الله» إلى آخر الآية.

وهذه الأمـور الثـلاثـة: - تقـوى الله واصـلاح ذات البين وطاعة أوامر الله والرسول- دعائم أساسية لصلاح المجتمع الاسلامي لما توفره من معنى الانضباط والالتزام في كل الأحوال لأحكام الشرع ووحدة الكلمة والصف وتكفل طاعة القيادة المخلصة الحكيمة (10).

10- انظر : التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي: 9/9-10.

التفسير

في هذا السياق جاءت آيات صفات كمال الايمان دافئة متدفقة بأسمى المعاني، وأعجز الكلام مما يجعلها تنفذ إلى أعماق القلوب والعقول من غير استئذان.

تبتدئ بصيغة الحصر «انما» (11) التي يخاطب بها من يعلم ذلك ولا يدفع صحته، أو ينزل منزلة العالم به الذي لا ينكره، وظاهر القصر هنا أن من لم يتصف بهذه الصفات ليس مومنا، وليس كذلك لأدلة من الكتاب والسنة، على أن الإيمان لا ينقصه الإخلال ببعض الواجبات، ومن ثم فالحصر -هنا باعتبار كمال الايمان لا باعتبار أصل الايمان، كما يقال: "انما الشجاع علي" على سبيل المبالغة والادعاء.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: " ويؤول هذا إلى معنى : انما المومنون الكاملو الايمان فالتعريف في «انما المومنون»

11- جاءت "انما" في آيات أخرى مماثلة كالآتي: " انما المومنون الذين إذا آمنوا بالله ورسوله" الآية - النور 62 /" انما المومنون اخوة" - الآية / الحجرات/ 10 " انما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله" الحجرات 15.

تعريف الجنس المفيد قصرا ادعائيا على أصحاب هذه الصفات مبالغة وحرف "أل" فيه هو ما يسمى بالدالة على معنى الكمال". (12).

وصفات كمال الايمان جاءت في الآيات. مرتبة أحسن ترتيب حيث بدئت بمقام الخوف من الله وخشيته، ثم بالانقياد لتكاليفه، ثم بالتفويض اليه وحده دون سواه، وهي كلها صفات تتعلق بالقلوب والبواطن.

ثم اتبعت باقامة الصلاة، وبذل المال في مرضاة الله باعتبارهما رأس الطاعات المعتبرة في الظاهر وأصل كل خير وفلاح.

الصفة الأولى: وجل القلوب عند ذكر الله.

«انما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم».

الوجل: الخوف والفزع، وأكثر استعماله في القلب، ومنه قولهم:« حمرة الخجل وصفرة الوجل».

وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه:«فرقت» وقرأ أبي بن كعب

12- تفسير التحرير والتنوير: 255/9 الدار التونسية - 1984م.

رضي الله عنه «فزعت» وكلتا القراءتين انما تحمل على التفسير ونظير هذه الآية قوله تعالى :«وبشر المخبثين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلوة ومما رزقناهم ينفقون».(13).

وجاء الوجل كذلك في سورة الحجر، في حوار ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع ضيفه المكرمين «قال انا منكم وجلون قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم» (14) وفي سورة «المومنون» في حق المومنين المشفقين من خشية ربهم «والذين يوتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون»(15) وليس للوجل بعد هذا ذكر في القرآن وفي سنن الترمذي عن أم المومنين عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية الأخيرة فقالت:« أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟».

13- الحج: 34-35

14- الحجر : 51-52.

15- المومنون: 60.

قال : لا، بنت الصديق ولكنهم الذين يصوموومن ويصلون ويتصدقون وهم يخافون الا يقبل منهم «أولئك يسارعون في الخيرات». (16) ووصفت أم الدرداء الوجل عند ذكر الله وصفا حيا معبرا عندما قالت لمن سألها عن حقيقته:« الوجل في القلب كاحتراق السعفة أما تجد له قشعريرة: قال: بلى قالت : فادع الله، فإن الدعاء يستجاب عند ذلك.

والسعف جريد النخل يسمع له عند احتراقه نشيش يشبهه شعور الوجل يلم بالقلب من ذكر الله فيهتز له ويخفق، كما قال الشاعر:

واني لتعروني لذكراك هزة

كما انتفض العصفور بلله القطر.

والقلوب تفزع لذكر الله استعظاما لجلاله وعظيم سلطانه ولكل معاني أسمائه تعالى وصفاته.

ولا تعارض بين الوجل - هنا- وبين الاطمئنان المذكور في

16- المومنون : 61.

قوله عز وجل: «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب»(17).

قال الامام القشيري في لطائف الاشارات:« ويقال : سنة الحق سبحانه مع أهل العرفان أن يرددهم بين كشف جلال، ولطف جمال، فإذا كاشفهم بجلاله وجلت قلوبهم، وإذا لا طفهم بجماله سكنت قلوبهم».

وهذان المعنيان المفترقان في هاتين الآيتين قد اجتمعا في آية واحدة وهي قوله تعالى:« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله» الآية (18).

وكذا القلوب بذكركم

بعد المخافة تطمئن

والخشية تتضمن على الدوام الرجاء، ولولا ذلك لكانت

17- الرعد : 28
18- الزمر : 23

قنوطا « انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»(19). كما أن الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا «فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون».(20) وهذه حال كُمَّل الإيمان العارفين بالله «انما يخشى الله من عباده العلماء»(21).

وحمل الوجل على الخوف منه تعالى كلما ذكر أبلغ في المدح وأنسب للموقف الذي جاءت الآية في سياقه من حمله على شيء معين بالذات، كما أن الذكر في عمقه هو ذكر الله وتذكره في كل مجالات الحياة، ومراقبته تعالى في جميع الأحوال والظروف، في السر والعلن في السكنات والحركات.

19- يوسف : 87.
20- الأعراف : 99.
21- فاطر : 28.

الصفة الثانية : تلاوة القرآن وزيادة الايمان.

«وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا».

يخبر الله سبحانه وتعالى بأن من شأن فضلاء المومنين وكُملهم أنهم إذا قرئت عليهم آيات الله- يعني القرآن- زادتهم ايمانا.

قال الضحاك : أي يقينا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : زادتهم تصديقا.

وزيادة الايمان بالقرآن يمكن تقريبها من خلال:

اولا: اثر القران في النفوس وصنيعه بالقلوب: سمى الله تعالى القرآن آيات، لأن وحيها إلى النبي الأمي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وعجز قومه كافة بل وعجز الانس والجن جميعا عن الاتيان بسورة من مثله فيه دلالة على صدق من جاء بهذه الآيات.

واسناد فعل زيادة الايمان إلى آيات الله مشعر بأنها هي المؤثرة في حصول الايمان، وليس الأمر كذلك، بل ان كان ولابد

كما قال الفخر الرازي: " فإن الموجب هو سماع تلك الآيات أو معرفة تلك الآيات".

وهذا الاسناد -عند علماء البلاغة- من المجاز العقلي إذ جعلت الآيات بمنزلة فاعل الزيادة في الايمان، وهذا من شأنه أن يفخم عليه المعنى كما عبر الامام عبد القاهر الجرجاني وأضاف:" ومن ذا الذي يخفى عليه مكان العلو، وموضع المزية وصورة الفرقان بين قوله تعالى: «فما ربحت تجارتهم» (22) وبين أن يقال : فما ربحوا في تجارتهم».

انها بلاغة القرآن التي اهتز لها أعرابي مشرك عند سماع قول الله تعالى:« فاصدع بما تومر وأعرض عن المشركين» (23) فلم يقو على التماسك وخر ساجدا، فلما قيل له: كيف تسجد لسماع القرآن وأنت مشرك؟ قال: انما سجدت لبلاغته.

وهذا وجه من وجوه اعجاز القرآن يعتبر الامام الخطابي أول من لفت الانتباه اليه: "قلت في اعجاز القرآن وجها آخر

22- البقرة : 16.
23- الحجر: 94.

ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه اليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ...."(24).

وأثر القرآن في النفوس عجيب وصنيعه بالقلوب أعجب يسمعه الذي أنزل عليه فيبكي، ويسمعه المشرك فيضطرب ولا يمل سماعه ويسمعه الكتابي المنصف فيخر ساجدا مما عرف من الحق.

عن عبد الله رضي الله عنه قال "قال لي رسول الله صلى

24- ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : 70.

الله عليه وسلم: اقرأ علي قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل يا رسول الله؟ قال اني أشتهي أن أسمعه من غيري: فقرأت النساء حتى إذا بلغت «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» (25). قال : كف أو أمسك فرأيت عينيه تذرفان . " رواه الشيخان.

يبكي لهول الموقف يوم القيامة.

وكان رؤوس الشرك وزعماء الكفر من قريش يتسللون خفية عن قومهم في أوائل البعثة النبوية ليسمعوا الكتاب المبين دون أن يستطيعوا مقاومة تأثيره.

خرج أبو سفيان وأبو جهل والأخنس بن شريق ذات ليلة متفرقين ودون اتفاق مسبق إلى التصنت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ويتلو القرآن الكريم في بيته، فباتوا يستمعون له دون أن يحس أحد منهم بصاحبه حتى إذا طلع الفجر جمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم

25- النساء : 41.

لبعض:" لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا"، حتى إذا كانت الليلة الموالية عاد كل منهم إلى مجلسه لا يدري بمكان زميله، فباتوا يتلذذون بسماع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى طلوع الفجر، فتفرقوا وجمعهم الطريق فتلاوموا وانصرفوا على ألا يعودوا لكنهم عادوا فتسللوا في الليلة الثالثة وباتوا يستمعون القرآن. وفي ذلك دليل قاطع على ما فعل بهم من أسر واعجاب.

وعندما عاد مبعوث قريش عتبة بن ربيعة من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد سماع آيات من حم السجدة وأبصرته قريش قالوا: أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فقال:" والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه".

ودخل جبير بن مطعم وهو مشرك على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة الطور فلما انتهى إلى قوله تعالى: «ان عذاب ربك لواقع ما له من دافع» (26) أخذت جبير

26- الطور : 8.

رجفة فلم يلبث أن أسلم وهو يقول: خشيت أن يدركني العذاب.

ويقول الله تعالى عن مجموعة من القسيسين والرهبان، كانوا إذا سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع:«ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين»(27).

ويقول سبحانه عن جماعة من صالحي أهل الكتاب، ممن ظلوا متمسكين بما أنزل على رسولهم لم يبدلوه ولم يحرفوه «ان الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا»(28).

وقصة اسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه معروفة فلا نطيل بها، وكذلك ما فعله القرآن بالأنصار حتى قال بعضهم:

27- المائدة : 82-83.
28- الاسراء : 107-109.

فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن: وصدق الله العظيم حين قال: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله».(29). وفي الصحيحين عن البراء رضي الله عنه قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشنطين فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال:" تلك السكينة تنزلت للقرآن".

نسأل الله السكينة والهداية، والتخلق بأخلاق القرآن.

وقد يتساءل متسائل فيقول: لماذا لا نبكي نحن اليوم عند سماع القرآن، على الرغم من كثرة المقرئين وتوفر أحدث الوسائل لاسماعه؟.

الجواب فيما يبدو والله أعلم يكمن في أمرين اثنين.

1- تلوث الفطرة: لقد كانت فطرة القوم عصر المبعث نقية صافية ومن ثم كان القرآن يخاطب عقولهم ووجدانهم فيجد

29- الحشر: 21.

منهم تجاوبا واقبالا، أما نحن اليوم فقد هاجمتنا الحضارة المادية في بيوتنا عبر القنوات الفضائية المختلفة والأنترنيت ومختلف نظم المعلومات المعاصرة، في غياب تربية اسلامية دقيقة فتبلدت فطرتنا وفي الصحيح "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. الحديث.

اننا مطالبون - بالحاح- بتلقيح أبنائنا ضد الالحاد والعقوق والانحراف، كما نلقحهم ضد الحصبة والجدري والسل، حتى ينشأوا وعندهم مناعة وحصانة ضد ما يناقض مقوماتهم وهويتهم، وحتى ينظروا إلى ما يشذ عن ذلك نظرة نقد ورفض لا نظرة اعجاب وشوق.

2- هجران القرآن: وهو ما أخبر به القرآن العظيم على لسان الرسول الكريم فقال سبحانه «وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا»(30)

ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يجسد القرآن في

30- الفرقان : 30

سلوكه ويخرجه من مجال التصور إلى مجال التطبيق وهو ما عنته السيدة عائشة رضي الله عنها عندما قالت لمن سألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان خلقه القرآن".

وكان الصحابة ومن بعدهم التابعون حريصين على تطبيق القرآن في حياتهم بمجرد تعلمه كما يعبر عن ذلك مثل قول أبي عبد الرحمن السلمي:" كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم غيرها حتى نعمل بها فتعلمنا العلم والعمل جميعا".

وقد يستغرب المرء عندما يقال له: ان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قضى ثمانية أعوام في حفظ سورة البقرة. حتى إذا علم أن الأمر لا يتعلق بمجرد الحفظ وانما بحفظ وتعلم فقهها وكل ما تتضمنه من علوم وأحكام وأمثال أدرك مغزى ذلك.

ان الابتعاد عن القرآن في العلم والعمل في النظرة إلى الحياة والسلوك فيها من شأنه أن يضعف الاحساس بآيات الله المتلوة وبالتالي البكاء والاتعاظ عند سماعها، ولذلك فمن

أوجب الواجبات العناية بتعليم القرآن في كل مراحل التعليم وأنواعه وترجمته إلى أخلاق وسلوك.

ثانيا : آيات الله وزيادة الايمان:

ذكر الله تعالى في هذه الآية أن تلاوة القرآن تزيد فضلاء المومنين ايمانا، ونظيرها قوله تعالى «وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون» (31) وللمفسرين في ذلك أقوال تحولت في بعض الأحيان إلى مباحث كلامية فيما إذا كان الايمان يزيد وينقص أم لا؟ مما آثر هذا الدرس عدم الخوض فيه، لبعده عن الموضوع، والاكتفاء من ذلك بما يسعف على فهم الآية.

1- ان الزيادة تكون بقوة الدليل وبكثرته، إذ أن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج يوجب زيادة اليقين، فمن تحقق له على المطلوب دليلان كان علمه أتم وأكمل ممن لا يجد على المطلوب سوى دليل واحد.

31- التوبة : 24.

وله في كل تحريكة

وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آية

تدل على أنه واحد

2- ان الزيادة تكون على اعتبار أن الاعمال من شرائع الإيمان، كما يظهر من هذه الآية، لأنه تعالى لما ذكر الصفات الخمسة قال: «أولئك هم المومنون حقا».

فدل على أن كل تلك الخصال داخلة في مسمى الايمان وإذا كان الأمر كذلك، فبسبب أن التفاوت في العمل يظهر التفاوت في الإيمان، وان لم يكن التفاوت في الإقرار والاعتقاد متصورا.

3-إن الزيادة تكون بتعدد التصديق وتجدده، لأن المومن إذا سمع حكما من أحكام الله لم يكن قد سمعه من قبل زاده إيمانا إلى سائر ما قد آمن به، إذ لكل حكم تصديق خاص، بل إن الآية الواحدة نسمعها في بعض المواقف التي تنطبق عليها فنشعر كأنها إنما نزلت في تلك اللحظة وفي ذلك الموقف.

4-إن المراد بزيادة الإيمان زيادة انشراح الصدر وطمأنينة القلب وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات، وهو أرجح الأقوال في تفسير قوله تعالى «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (32). إذ القرآن هو الذكر الحكيم الذي يرسم معالم الطريق الصحيح ويهدي للتي هي أقوم «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين»(33).

الصفة الثالثة: التوكل على الله

«وعلى ربهم يتوكلون»

التوكل في اللغة التفويض، والتوكل على الله صدق اعتماد القلب عليه، والمعنى أنهم يفوضون أمورهم كلها إلى ربهم ومدبرهم خاصة، لا إلى أحد سواه.

واشدد يديك بحبل الله معتصما

فإنه الركن ان خانتك أركان

32- الرعد : 28

33- الاسراء : 82.

والظاهر أن قوله تعالى:« وعلى ربهم يتوكلون» داخل في صلة "الذين" حيث أخبر الله سبحانه عن فضلاء المومنين بموصول وصل بثلاثة مقامات عظيمة:

1- مقام الخوف

2- مقام زيادة الإيمان

3- مقام التوكل

وتقديم المجرور هنا اما للتعريض بالمشركين لأنهم يتوكلون على اعانة الأصنام، كما قال تعالى:«واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا»(34). فيكون الكلام مدحا للمومنين تعريضا بذم المشركين ومجيء الفعل «يتوكلون» مضارعا يدل على تكرر ذلك منهم وتجدده وقد جاء الأمر بالتوكل في غير آية كقوله تعالى:«فاعبده وتوكل عليه» (35). وقوله سبحانه وتعالى: «الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المومنون»(36).

34- مريم : 81
35- هود: 123
36- التغابن: 13

والتوكل على الله والثقة به في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، لا يعني ترك الأسباب التي وضعها الله تعالى والاتكال عليه في أن يخرق للعبد العوائد بلا سعي ولا عمل بل التوكل هو أن يتخذ الإنسان الأسباب ويترك النتائج لمولاه:

توكل على الرحمن في الأمر كله

ولا ترغبن في العجز يوما عن الطلب

والله تعالى أمر بتعاطي الأسباب إلى جانب أمره بالتوكل فقال :«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل»(37). وقال: «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله»(38) وكان التوكل حال رسول الله.

ومما يبعث على الشفقة والاستغراب في آن واحد أن يلجأ بعض الناس إلى التوكل دون اتخاذ الأسباب، مثل ذلك المتوكل

37- الأنفال: 60
38- الجمعة : 10

الذي قال عنه المروزي لأبي عبد الله: إن رجلا بمكة قال: لا أكل شيئا حتى يطعمني ربي ودخل جبل أبي قبيس، فجاء اليه رجلان وهو متزر بخرقة فألقيا بين يديه شيئا، فلم ياكل حتى وضعا مفتاحا حديدا في فيه وجعلا يدسان في فيه، قال المروزي فضحك أبو عبد الله وجعل يتعجب (39).

وشر من هذا أن يتكل الإنسان على الأسباب ويتعلق بها اعتقادا منه أنها هي التي تنشئ النتائج «وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين» (40).

39- انظر : جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي : 438 دار الفكر - بيروت: 1412هـ - 1992م.
40- التكوير : 29.

الصفة الرابعة : اقامة الصلاة

«الذين يقيمون الصلاة»

بعد أن ذكر الحق سبحانه أفعال القلوب من خشية وإخلاص وتوكل، ومدح فضلاء المومنين بذلك، ذكر أفعال الجوارح فجمع بين الصلاة والإنفاق، لأنهما سنام الطاعات المعتبرة في الظاهر، وإعادة الموصول دالة على هذا الانتقال.

ومعنى يقيمون الصلاة أي يحافظون عليها في هيئتها وفي حقوقها وشرائطها، ذلك أن اقامة الصلاة عبارة عن توجه كامل نحو الخالق المتعال في ترابط وانسجام بين البدن والعقل والروح إذ لكل منها وظيفته، فلحركة الجسم القيام والركوع والسجود ولنشاط العقل القراءة والتدبر والتفكير ولنشاط الروح التوجه إلى الله والاقبال عليه. ولهذا يقال:" ان المصلين كثير والمقيمين قليل"

ولاشك انه إذا استقام الباطن، فلابد أن يستقيم الظاهر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:" ألا وإن في الجسد مضغة إذا

صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" رواه الشيخان.

ومن ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمن رآه يعبث في صلاته: " لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه".

وباختصار شديد ان الصلاة هي المعراج الروحي الذي يحقق الاتصال الدائم بالله والقرب منه «كلا لا تطعه واسجد واقترب» (41). وهي نبع السكينة ومدرسة التربية وتكوين الضمير الحي - النفس اللوامة -.

«ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون»(42).

وقد قرنها سبحانه بالصبر وجعلها عدة المومن في مواجهة مختلف مشاكل الحياة ومتاعبها «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» (43).

41- العلق : 19

42- المعارج : 19-23.

43- البقرة : 45.

والانسان محكوم بالزمن والصلاة تجعله مقدرا لقيمة الوقت حريصا على استثماره فيما يعود عليه بالنفع لأن أجله محدود وهو مُنْته فَانٍ، وهذه الحياة الدنيا ما هي الا طريق إلى الحياة الباقية.

يقول أبو الوليد الباجي:

إذا كنت أعلم علما يقينا بأن جميع حياتي كساعه

فلم لا أكون ضنينا بهـا وأجعلها في صلاح وطاعه

الصفة الخامسة : الانفاق في سبيل الله.

«ومما رزقناهم ينفقون»

ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المقصود بالانفاق الزكاة وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام باقامة الصلاة كما عبر ابن عطية والا فهو لفظ عام في الزكاة وغيرها.

نعم إن التعبير بالانفاق أعم من التعبير بالزكاة فيكون المعنى أنهم لصلتهم الدائمة بالله الرازق قد تخلصوا من الأنانية والشح والتعلق بالمال وخوف الفقر فأصبحوا ينفقون

في وجوه البر من زكاة مفروضة وغير ذلك من النفقات الواجبة والمندوبة.

والمال مثل الحصى مادام في يدنا

فليس ينفع الا حين ينتقل

وجيء بالفعل المضارع- ينفقون- كما جيء به من قبل في -يقيمون- للدلالة على تكرار ذلك وتجدده، وتقديم المفعول هنا للاهتمام به والمحافظة على رؤوس الآي، كما أن إدخال "من" التبعيضية عليه لمنع المكلف من الاسراف المنهي عنه.

بين تبذير وبخل رتبة وكلا هذين ان داما قتل

على أن يعطي المنفق مما يحب لقوله تعالى:« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» (44) وبغض النظر عما إذا كان الانفاق فرضا أو نافلة فالمطلوب في كلتا الحالتين أن يكون من أحسن ما يملك الانسان لا من الشيء المهمل الرخيص ولا من

44- آل عمران: 92

الشيء المكروه الخبيث وألا يقترن بالمن والأذى وكل ما يتنافى مع كرامة الانسان.

يقول الله تعالى :«وفي أموالهم حق للسائل والمحروم»(45) ويقول جل ذكره: «وأما السائل فلا تنهر»(46) لأن في المال حقا سوى الزكاة كما ان التفاضل في الرزق عرضي والغنى غنى النفس والمال مال الله «وآتوهم من مال الله الذي آتاكم» (47) وهو مال لا يجوز اكتسابه بطريق غير مشروع ولو بطريق الانتظار كأن يظل محتكرا في طبقة الأغنياء وحدهم «كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم»(48).

وقد بين الله تعالى شرف الانفاق في سبيل الله فقال :«مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» (49)

45- الذاريات: 19
46- الضحى: 10
47- النور : 33
48- الحشر : 7
49- البقرة: 261.

والدين الاسلامي يربي في النفوس الاستعداد للبذل والعطاء بناء على مجموعة من القيم والمبادئ المنبثقة من تعاليمه، من أخوة ومحبة ورحمة وعفو وإيثار، على أساس العقيدة التي تجعل المومن يقبل على الانفاق بشوق وتلهف امتثالا للأمر الالهي وإيمانا بأن الحاكمية لله رب العالمين وأن كمال الإيمان وأنموذجه المثالي يكمن في صفات وخلال، منها الانفاق في سبيل الله وأن الذي لا يؤدي حقوق الناس معرض للدخول تحت قوله عز وجل: «أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين» (50).

وبهذا الإيمان وتلك التربية تزول الأحقاد بين أفراد المجتمع أغنيائهم وفقرائهم وتسود المحبة والوفاق ويتعمق الرضى بما قسم الله تعالى وهي نتيجة إيجابية عظيمة لها أبلغ الأثر في بناء المجتمع وازدهاره وتنميته واستقراره.

50–الماعون : 1-2.

المصير المحمود والجزاء الموعود

"أولئك هم المومنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم"

بعد أن بين الله سبحانه صفات كمال الايمان قال منوها بأصحابها معظما لهم «أولئك هم المومنون حقا». وقد جاءت الاشارة بالبعيد لعلو منزلتهم ورفعة مكانتهم وشرفها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: برئوا من الكفر، ووصف الله النفاق وأهله فقال : « أولئك هم الكافرون حقا»(51) فجعل سبحانه المومن مومنا حقا وجعل الكافر كافرا حقا. وهو قوله تعالى : «هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مومن»(52).

وإذا كانت سورة الأنفال قد افتتحت بالإشادة بالذين يأخذون بأسباب القوة المعنوية باعتبارها الأساس لسائر

51- النساء : 151.
52- التغابن: 2

القوى. وأنهم هم المومنون حقا، فإنها قد ختمت بالاشادة بالذين يستعملون القوة المادية العادلة في الدفاع عن الحق وفي نشر الخير بأنهم أيضا هم المومنون حقا:« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين ءاووا ونصروا أولئك هم المومنون حقا» (53). مع نوع من الفضل للسابق عن اللاحق، فللأول « لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم»(54). "وحقا " صفة لمصدر محذوف، فالعامل فيه - المومنون- أي إيمانا حقا من حق الشيء إذا ثبت ووجب أو هو مصدر مؤكد للجملة قبله كقولهم هو عبد الله حقا، وقيل: انه منوط بما بعده أي - حقا لهم درجات - فهو ابتداء كلام، وقد أجازه بعضهم وهو ضعيف.

واتفق الأئمة على أن المومن يجوز له أن يقول: أنا مومن ثم اختلفوا هل يجوز له أن يضيف اليه حقا أم لا؟ واستدل بعضهم باية الأنفال هذه على عدم الجواز. وروي عن الحسن

53- الأنفال: 74.
54- الأنفال: 4

البصري أن رجلا سأله: أمومن أنت؟ قال: الايمان، ايمانان، فإن كنت تسألني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مومن... وإن كنت تسألني عن قوله تعالى:« إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم». إلى قوله تعالى «أولئك هم المومنون حقا». فو الله لا أدري أمنهم أنا أم لا؟.

قال أبو حيان: لما تقدمت ثلاث صفات: قلبية وبدنية ومالية، ترتب عليها ثلاثة أشياء : فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات والبدنية بالمغفرة والمالية بالرزق الكريم، وهذا النوع من المقابلة من البديع، ومن شأنه في الكلام أن يزيد المعاني وضوحا في الفكر ورسوخا في النفس كما هو مقرر في علم البديع- و"درجات" - جمع درجة بمعنى المرتبة والطبقة، وتنوين درجات للتعظيم، أي لهم منازل ودرجات رفيعة في الجنات كما قال تعالى:« هم درجات عند ربهم والله بصير بما يعملون» (55). وعن مجاهد أنها درجات أعمال الدنيا.

55- آل عمران : 163

والله تعالى فضل بعض الناس على بعض ورفعهم على بعض درجة واحدة أو درجات عدة في الدنيا وفي الآخرة وعند الله وهي عليا الدرجات وأفضلها.

«الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون» (56) ثم قال تعالى: «ومغفرة ورزق كريم». أي يغفر الله لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات ويعد لهم في الجنات نعيما مقرونا بالدوام والتعظيم.

قال صاحب تفسير المنار: معناه ولهم مغفرة من الله لذنوبهم الحقيقية التي سبقت وصولهم إلى درجة الكمال ان كانت كبيرة وما كان من قبيل اللمم ولذنوبهم الاضافية التي يحاسبون بها أنفسهم بعد بلوغ الكمال كالغفلة عند ذكر الله حينا وترك الأفضل إلى ما دونه حينا آخر وفوت بعض أعمال البر المحضة أحيانا وأمثال ذلك مما يعبر عنه: بحسنات الأبرار سيئات المقربين.

56- التوبة : 20.

خاتمة :

هذه جملة من صفات كمال الايمان ترقى بأصحابها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات وتبعث غيرهم على التسارع إلى الخيرات والتسابق إلى المكرمات دون أن تنزع عنهم صفة الايمان.

على أنه لا أحد - بعد عصر الصحابة - يستطيع أن يدعي أنه بلغ تلك الغاية ولا تربع على تلك القمة وفي ذلك حكم بالغة وأسرار باهرة حين يجتهد المومن بالليل والنهار ليبلغ الكمال بالاكثار من الأعمال الصالحة والقربات الخالصة.

ويتنافس في ذلك أهل الخير وتتزايد أعدادهم طمعا في واسع رحمة الله وفضله وكرمه وكلما ازداد وزن

الايمان في النفوس كلما ازداد المجتمع أمنا وسكينة وسادت فيه المودة والمحبة بين الناس.

يقول الله تعالى:« والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويوتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم»

نسأل الله العلي القدير أن يجعلنا من المومنين العاملين.

فهرس العناوين

مقدمة 5

الآيات منطلق الدرس 7

بين يدي الآيات 8

وجوه المناسبة بين الأنفال والأعراف 8

سبب النزول 10

التفسير 13

الصفة الأولى: وجل القلوب عند ذكر الله 14

الصفة الثانية: تلاوة القرآن وزيادة الايمان 19

اولا: أثر القرآن في النفوس وصنيعه بالقلوب 19

ثانيا: آيات الله وزيادة الايمان 28

الصفة الثالثة: التوكل على الله 30

الصفة الرابعة : اقامة الصلاة 34

الصفة الخامسة: الانفاق في سبيل الله 36

المصير المحمود والجزاء الممدود 40

خاتمة 45

فهرس العناوين 47

مطبعة وليلي
للطباعة والنشر والوراقة
شارع الأمير مولاي عبد الله (شارع آسفي سابقا)،
عمارة الفتح، رقم 1، مراكش
الهاتف : 48 40 31 44 0

تصدر هذه السلسلة لتعزز منشورات المجلس العلمي لجهة مراكش تانسيفت الحوز، وتلبي جزءا من رغبته في مزيد من الانفتاح على المحيط والتواصل مع مختلف فعاليات المجتمع وشرائحه، في إطار الكلمة الطيبة والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

نأمل أن تكون منبرا آخر للتوعية الدينية، من خلال درس أو محاضرة أو بحث، يعالج موضوعا يستأثر باهتمام المومنين، ويشغل بالهم، ويتجاوب مع الفطرة ومختلف الهواجس الساكنة في دواخل النفوس وخباياها، وبذلك يتحقق تضامن ماهو شفوي مع ماهو مكتوب ويتكامل، ليوصل المعرفة إلى جمهور عريض وأكثر تنوعا.

(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين).

صدق الله العظيم

والحمد لله رب العالمين.

دار وليلي للطباعة والنشر

044 31 40 48